السائرون بعيداً عن أوميلاس

أورسولا لي غوين

مع جلجلة الأجراس وبدءِ تحليقِ السنونوات، يقدم مهرجان الصيف إلى مدينة أوميلاس التي تبرزُ متألقة على البحر. تتراقص القوارب في الميناء مزدانةً بالرايات، وهناك في الشوارع، بين البيوت ذات الأسقف القرميدية الحمراء والجدران المطلية، بين الحدائق المكسوة بالطحالب القديمة وتحت أقواس الأشجار التي تسقف الطرقات، عبر منتزهات كبيرة ومبانٍ عامة، تسيرُ المواكب. كان بعضها يبدو لائقاً: كبار سن في جلابيب سميكة من البنفسجي والرمادي، أرباب عمل، نساء مرحات يتحدثن ويمشين وهن حاملاتٍ أطفالهن. في شوارع أخرى كانت الموسيقى تعزف بإيقاعٍ أسرع، ومضاتٌ من صوت الصنج وضرب الدفوف، وراح الناس يرقصون. كان الموكب كله عبارة عن رقصة. كان الصغار يتقافزون مراوغين خارج وداخل الموكب، صيحاتهم العالية لبعضهم تتصاعد كتحليق سنونوات متقاطعة فوق الموسيقى والغناء. تشق المواكب طريقها نحو الجانب الشمالي من المدينة. وهناك، حيث مرج المياه العظيم الذي يسمونه الحقول الخضراء، صبيةٌ وفتيات عراةٌ في الهواء الطلق، بأقدام وكواحل ملطخة بالطين، وأذرع طويلة رشيقة، يدربون خيولهم المضطربة قبل السباق. لم تكن الخيل ترتدي أية معدات عدا أرسن بدون لجام. أعرافها مجدولة بشرائط فضية وذهبية وخضراء. كانت الخيل متحمسة بصورة هائلة، تنخر وتصهل ويرفس أحدها الآخر. الخيل، ذلك الحيوان الوحيد الذي تبنى احتفالاتنا وطقوسنا كطقوس تخصه هو ذاته. بعيداً نحو الشمال والغرب، تقفُ الجبال مطوقةً أوميلاس في نصف استدارةٍ على خليجها. كان هواء الصباح صافياً جداً حتى أن الثلوج بدت واضحة وهي تتوج ثمانية عشر قمة ملتهبة بنار بيضاء ذهبية، تقطع أميالاً من الهواء المتوهج تحت سماءٍ داكنة الزرقة. كانت الرياح مثالية، ما يكفي تماماً لجعل الرايات التي تميز ميدان السباق ترفرف بين الحين والآخر. وفي صمت المروج الخضراء، كان بوسع المرء أن يميز صوت الموسيقى وهي تلف شوارع المدينة، يبعدُ صوتها ويقترب، ثم يقترب أكثر من أي وقتٍ مضى. ثمة حلاوة مبهجة تسكنُ في الهواء، ترتعدُ بين حينٍ وآخر، وتتجمع معاً، ثم تندلع في رنين الموسيقى الفرحةُ العظمى للأجراس.

البهجة؟ مالذي بوسع أحدهم أن يقوله عن البهجة؟ كيف تراه يصف شعب أوميلاس؟

لِعلمك، لم يكن هؤلاء أناس بسطاء بالرغم من سعادتهم. لكننا لم نعد نستخدم مفردات البهجة بذلك القدر مؤخراً. كما لو أن الابتسامات كلها قد أصبحت من حقبةٍ سابقة. إن إعطاء وصف كهذا يميل إلى خلق تصورات وافتراضات معينة، إعطاء وصف كهذا يوجهنا للتفكير بوجود ملكٍ يمتطي فرساً ويحيط به فرسانه النبلاء، أو ربما محمولا على هودجٍ ذهبي، يحمله عبيد ذوو أجساد مفتولة. لكنه في الواقع لم يكن هناك أي ملك! ولم يكن الناس في أوميلاس يستخدمون السيوف، أو يمتلكون العبيد. كما لم يكونوا برابرة متوحشين. أنا لا أعرف تحديداً القوانين والقواعد التي كانت تسيّر مجتمعهم، ولكني أشك أنها قليلة ومتفردة. وكما أن الناس هناك تدبروا أمرهم دون ملكية أو عبودية، فإنهم استطاعوا العيش دون تبادل العملات الورقية، دون الدعاية والشرطة السرية، ودون القنبلة. ولكنني أكرر أنهم لم يكونوا أناس بسطاء سذج، لم يكونوا رعاة سهلين، ولا وحوش نبلاء، ولا طوباويون لطفاء. بل إنهم لم يكونوا أقل رقياً وتطوراً منا. المشكلة هي أنه لدينا هذه العادة السيئةِ، بِحَثٍّ من الأدعياء والمتحذلقين، بالنظر إلى السعادة على أنها أمر ساذج وغبي إلى حدٍ ما. وحده الألم عظيم وراقٍ، وحده الشر مثيرٌ للاهتمام. هذه هي خيانة الفنان: رفض الاعتراف بتفاهة الشر والسأم الرهيب من الألم. إذا لم تتمكن من مجابهتهم فعليك الانضمام لهم. إذا أوجعتك محاولاتكَ فأعِد الكرّة. ولكن الثناء على اليأس هو إدانة للفرح، تبنّي العنف هو فقدان السيطرة على كل شيء آخر، ونحن فقدنا السيطرة تقريباً، ببساطة لم يعد بمقدورنا وصف رجل سعيد أو صُنع أي احتفاء بالفرح. كيف لي أن أخبركم عن شعب أوميلاس؟ نعم، لم يكونوا شعبا ساذجا من أطفال سعداء، بالرغم من أن أطفالهم كانوا كذلك، لكنهم هم كانوا

ناضجين أذكياء، ومحبين، ولم تكن حياتهم رديئة أبداً. يا لها من معجزة! ولكن بودي حقاً لو استطعت وصفها بصورة أفضل، أن استطعتُ إقناعكم. إن وقع "أوميلاس" في كلامي يشبه قصة أسطورية في زمانٍ ومكانٍ بعيدين جداً. مثل كان يا ما كان. ربما كان من الأفضل لو تخيلتموها كأفخر خيالاتكم على الإطلاق، على افتراض أنها سترقى إلى مستوى الظن، لأن وصفي قد لا يلائمكم جميعاً. على سبيل المثال، ماذا عن التكنولوجيا؟ برأيي لن تكون هناك عربات في الشوارع أو طائرات مروحية فوقها. هذا ينبع من حقيقة أن شعب أوميلاس سعيد للغاية، والسعادة مبنية على عنصرية عادلة تجاه ما هو ضروريٌ فقط، وما ليس ضرورياً ولا مضِرّاً، وما هو مُدمِر ومضر. في التصنيف الأوسط على كل حال- أي ما ليس ضرورياً لكن لا ضرر منه- حيث تندرج الراحة، الرفاهية والوفرة، الخ، يكون من المنطقي جداً حصولهم على تدفئة مركزية جيدة، قطارات أنفاق، غسالات، وأيضاً جميع أنواع الأجهزة الرائعة التي لم تخترع لدينا بعد: أطباق طافية مضيئة، أجهزة بلا وقود، علاجات ضد نزلات البرد، أو قد لا يكون لديهم أي من ذلك كله. إن ذلك لا يهم في الحقيقة. لندعه كما تحبون إذن. أميل للظن أن أناس من مدن وبلدات تتناثر أعلى وأسفل الساحل كانوا يتوافدون على أوميلاس في الأيام الأخيرة قبل بدء المهرجان، قادمين على متن قطارات صغيرة سريعة جداً، أو عربات ترام بطابقين. وأن محطة قطار أوميلاس هي في الحقيقة أجمل بناء في البلدة على الاطلاق، على الرغم كونه أكثر عادية من سوق المزارعين الرائع. مع كل ذلك، أستطيع أن أرى كيف أن أوميلاس تقع في نفوسكم كشيء أروع من أن يكون حقيقياً وقابلاً للتصديق: ابتسامات، ضحكات، أجراس، مواكب، خيول ووو.. إذا كان ذلك صحيحاً، فأرجو أن تضيفوا لكل ما سبق "العربدة"، إذا كان ذلك يساعد في أن يكون الأمر أكثر واقعية لا تترددوا. ولكن دعونا مع كل هذا، بالرغم من أنها كانت فكرتي الأولية، أقول دعونا مع كل هذا ألا يكون لدينا معابد تُظهِر صور عارية جميلة لكهنة وراهبات عراة، قد وصلوا لحالة من الشبق تجعلهم جاهزين للإلتحام بأي رجل أو امرأة، حبيب أو غريب، يرغب بالتوحد مع الألوهية الضاربة في الدم. ولكن حقاً، سيكون من الأفضل ألا تكون هناك معابد في أوميلاس، على الأقل ليست تلك المعابد المأهولة. الدين نعم، رجال الدين لا. بالتأكيد إن صور العراة الفاتنة تستطيع أن تجوب هنا وهناك مانحةً نفسها كحلوى مقدسة لجوع المحتاجين وشبق الجسد. لنسمح لها بالانضمام للمسيرة، لندع الدفوف تضرب فوق المتضاجعين، وأن يعلو وهج الرغبة فوق رنين الصنوج، ولندع نسل هذه الطقوس اللذيذة أن يكون محبوباً ومعتنى به من قِبل الجميع. شيء وحيد أعلم يقيناً بعدم وجوده في أوميلاس، "الخطيئة". لكن ما الشيء الآخر الذي يجب أن يوجد هناك؟ ظننت بدءاً ألا وجود للمخدرات عندهم، لكن هذا يبدو متزمتاً. للذين يحبونها، فإن هناك تلك الحلاوة المُلِحّة الناعمة لعشبة "الدروز" والتي بوسعها أن تعطر طرقات المدينة. "دروز" الذي للوهلة الأولى يصنع حالة من الخفة وتألق العقل والأطراف، ثم يحيله بعد ساعات إلى خمول حالم وأخيراً إلى رؤى وخيالات رائعة لأروقة الكون وأعمق أسراره. كما أنه أيضاً يؤجج متعة الجنس فوق كل تصوّر، ولا يشكّل الأمرُ أية عادة مع مرور الوقت. للأذواق الاكثر اعتدالاً، أظن بأنه لابد من وجود الخمر. امم.. ماذا.. ماذا أيضاً قد يوجد في هذه المدينة السعيدة؟ آه، ذلك الاحساس بالنصر بالتأكيد، الاحتفاء بالشجاعة. ولكن كما تمكنا من المضي قدماً دون رجال دين، دعونا فلنفعل أيضاً دون عساكر. إن الفرح المبني على النجاح في صنع المجازر ليس النوع الصحيح من الفرح، لا لن يكون ذلك صائباً، إنه مليء بالرعب، وتافه. ما كان حقاً يُشعر شعب أوميلاس بالسعادة هو ذلك الرضى السخي واللامحدود، ذلك الشعور الرحب بالانتصار، ليس على عدو خارجي، بل في الاتحاد والتواصل مع أرقى وأعدل ما في نفوس البشر في كل مكان، وروعة صيف هذا العالم. هذا ما كانت تتضخم له قلوب الناس في أوميلاس حقاً، وما النصر الذي يحتفون به إلا انتصار الحياة. حقاً، أنا لا أعتقد أن كثيرين منهم كانوا بحاجة إلى تعاطي الدروز. بهذا الوقت لابُد وأن تكون أكثر المواكب قد وصلت إلى الحقول الخضراء. ثمة رائحة رائعة لطعام مطبوخ تفوح طافيةً ما بين الخيام الحمراء والزرقاء للمتبرعين. وجوه الصغار تبدوا لزجةً بصورة لطيفة، وفي لحية رجل رمادية يتعلق فتات كعك دسم، فيما يعتلي الشباب والفتيات خيولهم وقد بدأوا يتجمعون حول خط الانطلاق. ثمة امرأة عجوز، قصيرة بدينة وضاحكة تمرر الزهور من سلتها إلى شبان يضعون زهورها على شعورهم المصقولة. ثمة طفل في التاسعة أو العاشرة يجلس في جانب الحشد، وحيداً يعزف لحناً شجياً على نايٍ خشبي. يتوقف الناس مستمعين إليه، يبتسمون، لكنهم لا يحدثونه، فهو لا يتوقف عن العزف ولا يراهم أبداً، عيناه الداكنتان غائبتان تماماً في سحر النغم الجميل.

ينهي اللحن، ويرخي يديه بهوادة ممسكاً نايه الخشبي.

وكأن في هذا الصمت القصير الخاص إشارةٌ ما. هكذا مرة واحدة يعلو صوت البوق من الصوان قرب نقطة البداية: ملّحاً، حزيناً، وثاقباً. تتحفز الخيول على سيقانها الرشيقة ويصهل بعضها مجيباً. وبوجوه رصينة يمسد الفرسان على أعناق خيولهم ويهدئونهم هامسين، "بهدوء بهدوء، هأنذا ذا يا حبيبي، يا أملي"، وإذ أنهم بهذه الحال، يبدأون بالتشكل في صفٍ واحد بامتداد خط الانطلاق. تبدوا الحشود على اتساع وطول المضمار مثل حقلٍ من عشب وزهور في مهب الريح. ها قد بدأ مهرجان الصيف.

والأن، هل تصدقون كل هذا؟ هل تتقبلون المهرجان؟ المدينة؟ هذا الفرح؟ لا؟ إذن دعوني أصف لكم شيء واحد بعد.

في الطابق السفلي لأحد المباني الجميلة في أوميلاس، أو ربما في قبو أحد المنازل الخاصة، هناك حجرة، ببابٍ واحدٍ موصد، وبلا أية نوافذ. ثمة ضوء ضئيل يتسرب مغبراً بين شقوق الألواح، بينما يأتي بقايا ضوء آخر من نافذة ما في القبو بنت عليها عنكبوتٌ عشها. في إحدى زوايا الحجرة الصغيرة، بجوارِ دلوٍ صدئ، تقف ممسحتان برأسينِ قاسيين متكتلين بالقاذورات، ورائحة عفِنة. أرضيةُ المكان عبارة عن تربة رطبة الملمس، كعادة الغبار في الأقبية. لا تتجاوز الحجرة الثلاث خطوات طولاً واثنتان عرضاً: بالكاد مساحة خزانة مكانس أو غرفة معدات مهجورة. في الحجرة، هناك طفل يجلس. قد يكون صبياً أو فتاة. يبدو في نحو السادسة من العمر، لكنه في الحقيقة يقترب من العاشرة. إنه أبله. ربما كان قد وُلِد بعاهة أو أنه قد أصبح معتوها معلولاً من الخوف وسوء التغذية والإهمال. ينخرُ أنفه بإصبعه ويتحسس أصابع قدميه أو أعضاءه التناسلية ببلادة من حين لآخر، بينما يجلس محدودباً في الزاوية الأبعد من الدلو والممسحتين. إنه يخاف المماسح، يجدها مريعة. يغمض عينيه، ولكنه يعلم أن الممسحتين لا تزالان وقفتان، وأن الباب موصد، وأنْ لا أحد سيأتي، باستثناء بعض الأحيان –التي لا يستطيع الطفل استيعابها كونه ليس لديه أي إدراك فيما يخص الوقت والزمن- أقول أنه أحياناً يهتز الباب بشكل رهيب ثم يكون هناك شخص أو عدة أشخاص. أحدهم قد يأتي ويركل الطفل ليحضّه على الوقوف، بينما يبقى الآخرون على مسافة بعيدة محدقين فيه بعيون مرتاعة ومشمئزة. يُعبأ له وعاء طعام وابريق ماء على عجل، يُغلَقُ الباب، وتختفي الأعين. لا يقول الواقفون على الباب أي شيء أبداً، لكن الطفل الذي لم يعش طوال حياته في غرفة المعدات، ومازال بوسعه أن يتذكر أشعة الشمس وصوت أمه، كان يتحدث أحياناً. "سأكون طيباً" يقول، "اسمحولي بالخروج لطفاً، سأكون طفلاً طيباً!"، لكن لا أحد يجيب. كان الطفل يصرخ طلباً للمساعدة في الليل، ويبكي بكثرة، لكنه الآن لم يعد يصدر سوى شكلاً من الأنين، "إيهئ، إيـهئ" ويتحدث أقل وبصورة أقل مما كان يفعل سابقاً. لقد بلغ من النحالة حد أن لا وجود للحم على ساقيه، بينما يبرز بطنه الذي يعيش على نصف وعاء من الذرة والدهن يومياً. إنه عارٍ تماماً، عجيزته وفخذيه عبارة عن كتلة من القروح والدمامل الملتهبة جراء جلوسه على برازه باستمرار.

جميعهم يعرف أن الطفل هناك، كل شعب أوميلاس. بعضهم جاء ليراه، والبعض الآخر يكتفي بمعرفته بوجوده. كلهم يعرف أن وجوده هناك ضروري ولابد منه. يدرك بعضهم لماذا، والبعض الآخر لا يدرك، لكنهم كلهم يدركون جيداً أن سعادتهم وجمال مدينتهم وليونة علاقاتهم كما صحة أبنائهم، حكمة علمائهم، وحرفية عمالهم، وحتى وفرة محصولهم ولطف الاجواء في سمائهم، كله يعتمد كلياً على التعاسة اللعينة لهذا الطفل. يُشرح هذا الأمر عادة للأطفال عندما يصبحون في سن ما بين الثامنة والثانية عشر، عندما يكون بمقدورهم التفهم، وأكثر هؤلاء الذي يجيئون لرؤية الطفل هم من صغار السن، ولكن من المعتاد أيضاً أن يجيء البالغون، أو يعاودون المجيء مرة أخرى ليروه. وبغض النظر عن القدر الذي شُرِح به الأمر، لطالما صُدِم المتفحصون الصغار وشعروا بالغثيان إزاء المنظر. يشعرون باشمئزاز لطالما ظنوا أنفسهم بمنأى وترفّعٍ عنه، وبغضب وثورة وعجز برغم كل الشروحات لهم. يودون لو أن بإمكانهم فعل شيء للطفل، ولكن لا شيء هناك بإمكانهم فعله. لو تم إخراج الطفل للضوء خارج ذاك المكان الوضيع، لو تم تنظيفه، إطعامه والاعتناء به، سيكون ذلك أمراً جيداً حقاً، لكنه لو تم عمل ذلك فعلاً، ففي ذلك اليوم وفي تلك الساعة كل ازدهار وجمال وفرح أوميلاس سيذبل ويُدمَّر. هذه هي القوانين. أن تقايض كل ذلك الرخاء وتلك النعم لكل روح حية في أوميلاس بذلك التحسن الطفيف الذي قد يغشى ذلك الفرد، أن ترمي ادراج الرياح سعادةَ الآلاف من أجل فرصة محتملة لسعادة فردٍ واحد، ذلك يعني أن تترك الذنب يجول داخل الجدران.

إنها أحكام مطلقة قطعية وقاسية، حتى أنه لا توجد أية كلمة مواساة تصلح أن تقولها للطفل. غالباً ما يذهب الصغار إلى بيوتهم باكين، أو في ثورة غضب بلا دموع عندما يرون الطفل ويواجهون هذه التناقض الشنيع. قد لا يبارحهم الأمر لأسابيع، أو ربما سنوات. ولكن مع مضي الوقت فإنهم يبدأون بالإدراك أنه حتى لو تحرر الطفل وأطلق سراحه فإنه لن يجني فائدة تذكر من حريته: ربما شعر بسعادة مبهمة صغير لقاءَ الدفء والغذاء بلا شك، لكن لا شيء أكثر ذلك. إنه أبله وأكثرُ وضاعة من أن يدرك أي متعة حقيقية. ولقد بقي زمناً طويلا خائفاً أن يتحرر من مخاوفه. عاداته خرقاء أكثر من اللازم ليتمكن من التعاطي مع أي تعامل آدمي. في الحقيقة، بعد كل هذا الوقت سيكون من التعاسة له أن يعيش دون جدرانه التي تحميه، والعتمة التي في عينيه، ونجاسته التي يجلس عليها. إن دموعهم على تلك العدالة المريرة سرعان ما تجف عندما يبدأون بإدراك وتقبل عدالة الحياة الرهيبة. ومع هذا فإن دموعهم وغضبهم، وبذلهم لكرم أحاسيسهم وتقبلهم لعجزهم هي تحديداً مصدر الروعة في حياتهم. ليس ثمة سعادة تافهة لا مسؤولة. هم يعرفون أنهم، كما الطفل، ليسوا أحراراً. وهم يعرفون معنى العطف. لكن وجود الطفل، ومعرفتهم بوجوده، هو ما يجعل ممكناً نبالة عمرانهم وجزالة موسيقاهم وعمق علمهم، إنه لأجل هذا الطفل هم هكذا حنونون جداً مع صغارهم. هم يعلمون جيداً أنه لو لم يكن ذلك الشقي هناك يمارس عويله في الظلام، فإن الآخر، عازف الناي، لن يكون بوسعه صنع موسيقاه المبهجة بينما يصطف الفرسان الشبان بكامل جمالهم وأبهتهم للسباق تحت شمس أول أيام الصيف.

هل تؤمن بهم الآن؟ أليسوا الآن أكثر قابلية للتصديق؟ لكن لازال هناك أمر واحد لأخبركم عنه، وهذا، شيء لا يصدق.

في بعض الأحيان يحدث أن أحد الفتية أو الفتيات البالغين الذين يذهبون لرؤية الطفل لا يعودون لبيوتهم للثورة والبكاء، في الحقيقة، إنهم لا يعودون لبيوتهم أبداً. في بعض الأحيان أيضاً فإن أحد من يكبرون هؤلاء بكثير من الرجال أو النساء قد يسقط تحت وطأة الصمت ليوم أو يومين، ثم يغادر بيته. هؤلاء الناس يخرجون للشوارع، ويسيرون في الطرقات لوحدهم. يستمرون بالمسير، ويمشون رأساً خارج مدينة أوميلاس، عبر بواباتها الجميلة. يواصلون المسير قاطعين مزارع أوميلاس، كلٌ على حدة، شاب أو فتاة، رجل أو امرأة. وعندما يحل الظلام، يعبر المسافر دروب القرى، بين البيوت ذات النوافذ المضاءة الصفراء، ويمضون نحو عتمة الحقول. كل على حدة، يتجهون غرباً أو شمالاً، نحو الجبال يمضون. يغادرون أوميلاس نحو العتمة، ولا يعودون أبداً. أما المكان الذي يذهبون إليه فهو أصعب للتخيل علينا من مدينة السعادة تلك. إنه أمر لا أستطيع وصفه بالمطلق. من المحتمل ألا يكون موجوداً من الأساس، ولكنهم يبدون كمن يعرف أين يتجه، أعني أولئك، السائرون بعيداً عن أوميلاس.